خاتمة المطاف

العلماء ورثة الأنبياء

قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

لقد بدأ الله تعالى بنفسه. وثنى بالملائكة. وثلث بأهل العلم. وناهيك به شرفا وفضلا وجلاء ونبلا.

وقال عز وجل: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]

قال ابن عباس رضى الله عنهما: للعلماء درجات فوق درجات المؤمنين بسبعمائة درجة مابين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام.

وقال الله عز وجل ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

فالعلماء بالله تعالى هم أكثر الناس له خشية وأشدهم منه خوفا. فالعبد يخشى ربه على قدر علمه به سبحانه وتعالى.

وقال عز وجل: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٤٣].

أى شرف للعلماء بعد هذا الشرف العظيم؟

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] فقد رد حكمه فى الوقائع إلى استنباطهم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله، قاله الإمام الغزالى رحمه الله تعالى.

وقال: قيل فى قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ يعنى العلم ﴿ وَرِيشًا ﴾ يعنى اليقين ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ﴾ يعنى الحياء (١) أ. هـ.

وروى الشيخان من حديث معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) وعند الطبرانى فى الكبير بزيادة (ويلهمه رشده).

وأخرج أبو داود والترمذى وغيرهما من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (العلماء ورثة الأنبياء) ومعلوم أنه لارتبة فوق رتبة الأنبياء. ولا شرف فوق الوراثة لتلك الرتبة.

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (خصلتان لا يكونان فى منافق: حسن سمت وفقه فى الدين) أى الفقه الذى يخلق فى صاحبه الخضوع والخشية والتواضع لله عز وجل. وهو ما صحت فيه النية وصدق فيه المقصد. أما الفقه الذى طلبه صاحبه ليتكسب به أو لينال به درجة أو وظيفة. فهذا هو الذى ذكر فى الحديث.

وأخرج الترمذى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (فضل العالم على العابد كفضلى على آدنى رجل من أصحابى) حسن صحيح وذلك لأن العالم: علم فعمل بما علم وهذا خير الناس. يقول الإمام الغزالى فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة. وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التى يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة؟

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١٢٢]

وقال تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

وأخرج مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال.

---

(١) الإحياء: ١/ ١٥ والآية من سورة الأعراف: ٢٦.

(من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة)

وروى أحمد والحاكم من حديث صفوان بن عسال رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع) .

وروى فى الصحيحين من حديث سهل بن سعد أن النبى ﷺ قال لعلى : (لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها) ورواه أحمد عن معاذ بن جبل وأخرج الترمذى من حديث أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله سبحانه وملائكته وأهل سماواته وأرضه حتى النملة فى جحرها حتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير) .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ وقال : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) .

فهذه النصوص القرآنية وتلك الأحاديث النبوية وغيرها كثير. كلها تبين لنا فى وضوح فضيلة العلم والتعليم والعلماء. لأن العلماء ورثة الأنبياء لأنهم يحملون رسالتهم من بعدهم. والعلماء بهذا تكون مسئوليتهم خطيرة وأمرهم عظيم وآخرتهم رضا العلى الكبير عنهم ومغفرته لهم. إن كانوا قد أدوا الأمانة وبلغوا دعوة نبيهم ﷺ بصدق وإخلاص وقد اتخذوا رسول الله ﷺ أسوة لهم وقدوة يقتدون به فى منهجه صلوات الله وسلامه عليه لذلك نالوا هذا الشرف العظيم وتلك الرتبة العالية. لأن الوارث شرفه من شرف من ورثه. وهؤلاء ورثة المصطفى ﷺ فانعم به من شرف.

* * *

النبى صلى الله عليه وسلم وورثته

عرف العلماء العلم. بأنه: إدراك المعلوم على ماهو به.

فالعلم وصف قائم بالعالم به يدرك حقائق الأشياء. لأن التعرف على الأشياء لا يحصل إلا بعلم ومعرفة. والبشرية لا تستغنى عن العلم فى كل شئون حياتها الدنيوية والأخروية. لذا كان شأن العلم عظيما وأمره خطيرا. ولا يشتغل بالعلم – أيا كان موضوعه – إلا كل إنسان منّ الله عليه بقدرات عقلية ورغبة ملحة فى تحصيل العلوم والمعارف. وبقدر نية العبد وقدرته العقلية ورغبته يمنحه الله تعالى علما ومعرفة..ليخدم أمته دينا ودنيا.

والإسلام قد أشاد بالعلم والعلماء لأنه دين قائم على العلم والمعرفة. كما سبق وقد مكث النبى ﷺ ثلاثا وعشرين سنة يبلغ الناس دعوة الله عز وجل ويعلمهم أحكام الله تعالى – أوامره ونواهيه – فقد كان يلقى على مسامعهم فى كل يوم ما يأمره به الوحى. فكانوا يتلقونه بالقبول فتعياه قلوبهم وتفقهه عقولهم لصدق نياتهم وإخلاصهم فى خدمة دينهم. فعاش ﷺ ومات وهو راضٍ عنهم. والله عز وجل قد كلل رضا نبيه برضاه عنهم رضوان الله عليهم ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة**﴾.

وما هو معلوم ضرورة أن مبايعتهم لله ولرسوله لم تكن مجاملة ولامحاباة وإنما كان مصدرها العلم بالله عز وجل ومعرفة قدر ومنزلة النبى ﷺ لذلك أثنى عليهم معلمهم ﷺ فقال: (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ثم جاء من بعدهم من العلماء أجيال متتابعة بعضها طيب وبعضها خلط الخير بغيره لتغير مقاصدهم واختلاف نياتهم وتوجهاتهم.

قال الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى [1]: اعلم أن الخلافة بعد رسول الله ﷺ تولاها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء فى أحكامه. وكانوا مستقلين بالفتاوى فى الأقضية. فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا فى وقائع لايستغنى فيها عن المشاورة. فتفرغ العلماء لعلم

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٥٥.

الآخرة وتجردوا لها. وكانوا يتدافعون الفتاوى. ومايتعلق بأحكام الخلق من الدنيا. وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم. فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام. اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم. وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين. ومواظب على سمت علماء السلف. فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات.

فرى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم فاشرأبوا لطلب العلم توصلا الى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة. فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة. وتعرفوا إليهم. وطلبوا الولايات والصلات منهم. فمنهم من حرم. ومنهم من أنجح. والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال. فأصبح الفقهاء – بعد أن كانوا مطلوبين – طالبين. وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم. إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله. وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات. ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها. فعلمت رغبته الى المناظرة والمجادلة في الكلام. فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف. ورتبوا فيه طرق المجادلات. واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات. وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة. كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين. إشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم.

ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه. لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد. ومالت نفسه إلى

المناظرة فى الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص. وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم. وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى. وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات. وهم مستمرون عليه إلى الآن.

ولسنا ندرى ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار؟

فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لاغير. ولومالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضا معهم. ولم يسكنوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين أ.هـ.

وأقول لإمامنا العلامة: أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى:

ياسيدى: لقد أصبح حال العلماء أسوأ مما ذكرت. وأخبث مما عرفت. لقد نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم. ومالوا إلى الدنيا يطلبون متعها وشهواتها لقد نافقوا الله ورسوله طلبا للرياسة أو للشهرة او لجمع المال من هنا أو من هناك. وتنازلوا عن مسئوليتهم الخطيرة.

لقد ضيعوا سنة رسول الله ﷺ. وسالموا أعداء الإسلام وتحدثوا بمنطقهم ووافقوا مقولاتهم.

لقد أنكر الأفاقون من العلمانيين سنة رسول الله ﷺ فى كثير من أبوابها. وعابوا بعض النصوص النبوية التى تتعارض مع هواهم. وردوا أحاديث الشفاعة وكذبوا بها. وعابوا الرسول ﷺ أحيانا وعاب فريق منهم فقه الفقهاء. وطالبوا بتغيير بعض الأحكام بدعوى أنها لا تلائم مطالب العصر. وقالوا إن هذا تنوير ومرونة فى تطبيق أحكام الشريعة وغيره رجعية وتخلفا.

ومال فريق الى الهجوم على علماء الإسلام العاملين الذين أخلصوا العمل وصححوا النية فى معاملة ربهم عز وجل.

وبكل أسف وقف العلماء أمام كل هذه الاتجاهات فى سلبية خطيرة وبعض هؤلاء العلماء ربما وافق بعض وجهات النظر هذه طلبا للشهرة باسم المرونة والتنوير وقالوا للمخلصين من العلماء دعونا مما أنتم فيه من التزمت والتعصب. وحسبوا المحافظة على الإسلام تزمتا وتعصبا وذلك منهم جهل وخيانة للأمانة.

إن فى الساحة على مستوى العالم الإسلامى علماء شرفاء مخلصين. لأن الخير موجود دائما ولن ينقطع. و هذا الفريق من العلماء والدعاة المخلصين محل اتهام ممن نعبت بهم الدنيا بزخرفها وشهواتها وهان عليهم الإسلام ونبى الإسلام، لقد كثرت الفتاوى وتباينت. فبعضهم يفتى برأيه وبعضهم يفتى بالمرجوح فى وجود الرأى الراجح. وبعضهم يفتى بالرأى الضعيف فى وجود الرأى الصحيح والفتوى بذلك باطلة كما صرح به كبار العلماء من أمثال الأئمة النووى والعراقى وابن تيمية وغيرهم.

وظن هؤلاء وأولئك أنهم بهذه الفتاوى متنورون ومرنون يتعاملون مع الإسلام بلغة العصر ولم يعلموا أنهم بذلك قد أهانوا الإسلام وضيعوا السنة. ونسوا الله ورسوله ﷺ.

وأقول – معتذرا – هذا هو موقف العلماء فى عصرنا من الإسلام ونبى الإسلام السواد الأعظم منهم نافقوا إما جهلا وإما سعيا وراء تحصيل متعة زائفة وزائلة، وأما القلة فهم بخير ومازال فى الأمة من العلماء من يغار على دين الله عز وجل وهم واقفون فى خندق الدفاع عن الإسلام وعن نبى الإسلام ضد أعدائه ممن يكيدون له من الخارج أو من أعوانهم فى الداخل. و الله تعالى ناصر أحبابه سيدى يارسول الله: سل الله سبحانه وتعالى أن يهدى علماء لأمة ويأخذ بأيديهم ليبلغوا دعوتك ويعلموا الناس أحكام شريعتك ليعملوا بسنتك اللهم أهدى الحائرين منهم والضالين وانصر المخلصين. واجمعهم كلهم على محبتك ومحبة نبيك ﷺ ومحبة الإسلام ليتحقق فيهم معنى الوراثة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.